

## دراسة العناصر الطبيعية فى ديوان الاسود بن يعفر

اثر: دكتور عزت ملا ابراهيمى

استاديار دانشكده ادبيات و علوم انسانى دانشگاه تهران

(از ص ۱۹۹ تا ۲۰۶)

### خلاصة:

كان الشاعر البدوى فى العصر الجاهلى غارقاً فى الصحراء و الطبيعة المحيطة به، فقد كانت الطبيعة تملأ روحه و كل وجوده و تشغل عاطفته و خياله و بناء على ذلك فان الادب الجاهلى الذى هو ثمرة فكره و خياله و عاطفته يحمل طابع الصحراء. فقد كانت الطبيعة المدهشة و الجميلة لارضه ممتدة امامه دون اى حجاب و كان يشعر بوضوح كل قوتها و حرارتها و يعيش فيها دوماً الى درجة انها كانت تضى الصراحة على ذهنه و تنير فكره. و لذلك فقد حملت المقالة التى هى الان بين يدي القارىء الكريم اسم «دراسة العناصر الطبيعية فى ديوان الاسود بن يعفر» بهدف بيان فطنة الشاعر و حضور ذهنه و تصوير احساسه اللطيف و شعوره الدقيق.

الكلمات الرئيسية: الوصف، الطبيعة، اسود بن يعفر، الشعر الجاهلى،

موسيقى، البادية.

### مقدمه:

كان العرب في العصر الجاهلي يولون اهمية خاصة الى الشعر. انهم كانوا يتوسلون في الغالب بفن الشعر للتعبير عن احساسهم. و قد عرف هذا الفن باعتباره اكثر ذخائر الادب العربي اصالة، و كمانرى في اشعار الاسود بن يعفر و شعراء الآخرين فقد كان الشعر اهم و اقوى اساليب لتحريض و الاقناع. و قبل ان نبدأ بدراسة اشعار الاسود بن يعفر و نشير الى مظاهر من العناصر الطبيعية في آثاره نلقى اولاً نظرة سريعة الى حياته الشخصية و الادبية.

ولد الاسود بن يعفر النهشلي في العراق و نشأ و ترعرع فيه (تاريخ التراث العربي، ج ٢، ص ١٣٠). و قد عاش في صليب التقاليد و العادات الجاهلية. و على هذا فان طبيعة قوله و اسلوبه كانا يصدران ممتزجين بوهج الصحراء المقفرة و يحملان الطابع الجاهلي. و قد جمع ابوالفرج الاصفهاني في كتاب الاغانى (ج ٢، ص ١٥-٢٨) جميع الروايات المتعلقة بحياته.

و بشكل عام يمكن تقسيم الحياة الشخصية و الادبية للاسود بن يعفر الى مرحلتين مختلفين: المرحلة الاولى، و هى التى انقضت فى الاسفار الكثيرة و اللجوء الى القبائل البدوية فى ظل حياة بسيطة و امتدت حتى اواسط عمر الشاعر (الاغانى، ج ١٣، ص ١٩-٢٢؛ شعراء النصرانية، ج ١، ص ٤٧٥-٤٧٧؛ تاريخ الادب العربي، ج ١، ص ١٥٨). و اما المرحلة الثانية فقد انقضت برمتها فى الحيرة فى بلاط النعمان بن المنذر. و فى هذه المرحلة تحرر الاسود قليلاً من اطار الطبيعة الجاهلية و تعرف على ثقافة الملوك المناذرة و عاداتهم و تقاليدهم و حضارتهم (الاغانى، ج ١٣، ص ٢٢-٢٣؛ خزانة الادب، ج ١، ص ٤٠٦؛ دائرة المعارف، ج ١٣، ص ٣٦٢).

ان مهارة الاسود بن يعفر فى استخدام الكلمات المتداولة و خلق الموسيقى فى تركيب الكلمات جعلت شعره يحظى باعجاب و قبول الجميع. فقد ضمن المفضل الضبى اولاً اشعاره فى مختاراته (المفضليات، ص ٢١٥-٢٢٠، ٤١٧-٤١٩). و لم يأل عبد الملك

الاصمعي الناقد الكبير للشعر العربي جهداً في الثناء على الشاعر (كتاب فحولة الشعراء، ص ١٢-١٥). كما اشاد ابن سلام الجمحي (طبقات الشعراء، ص ٣٣-٣٤؛ طبقات فحول الشعراء، ج ١، ص ١٤٠-١٤٧) بقصائد الاسود الرائقة و اعترف بمهارته و مقدرته، و اضعاً اياه في الطبقة الخامسة من شعرائه، بل أنه انزله منزلة ارفع من منزلة اصحاب المعلقة.

وقد نظم الاسود بن يعفر في اغلب موضوعات الشعر العربي اعتباراً من المدح و الغزل و الوصف و الهجاء و حتى الفخر و الحماسة و الرثاء و يحتمل الوصف الحجم الاكبر من اشعاره و هو يبدأ من ابرز ظواهر الحياة و يضيف على جميع اشعاره الطابع الواقعي. فعندنا يتناول الشاعر الاشياء البسيطة و العديمة الخطر بالوصف فانّ الاعجاب الذي يثيره في الاذهان يتجاوز الوجود الخارجي لتلك الاشياء و قد الهمت المظاهر المختلفة للطبيعة الاسود مفهومها الخاص، فصقلت خياله و اضفت على كلماته الرصانة و الثبات و القسوة.

ان تركيبة قصائد الاسود بن يعفر و مفاهيم اشعاره و الفاظها تدور بشكل كامل في الاطار الجاهلي. فيطالعنا في جميع ارجاء اشعاره حشد من الالفاظ الغريبة المستقاة من صميم البادية و الممتزجة مع المصطلحات و المعاني الجاهلية القديمة. ولأن الاسود بن يعفر كان منبهاً بالطبيعة فقد احتلّ جمالها و جلالها مساحة واسعة من قلبه. و هو يرى في الوصف وسيلة لتحريك احساس الممدوح او اثاره عواطف المعشوق. و لذلك فانه قد يعتمد احياناً الى وصف الظواهر الطبيعية اي طبيعة البادية الصامتة (الديوان، المخطوطة ١٣، ص ٣٠):

احوى المذانب مونق الرواد

ولقد غدوت لعازب متناذر

نقاً من الصفراء و الزباد

جادت سواريه و آزر نيبته

لقد كان الاسود بن يعفر في حالة تجوال دائم و كانت البادية تعد دائماً مصدر الهام الشاعر و لذلك فقد كانت تمنح الرقة لاحساسه و الصفاء لنفسه. و هذا الصفاء في الفكر يمارس تأثيره في الفن، فالشاعر لا ينشغل بالادعاءات، بل يتحدث عن

الحقائق و یخّذنا عن الطبيعة صادقاً مخلصاً كما هي. انه يصور الطبيعة ببيان بسيط و فلسفة سطحية و كانه يدرك كل ما يراه دون اى اشكال و دون ان يحتاج الى الشك و الحدس و التأمل.

كان الاسود ينظر الى ما حوله و يمتزج معه و يعتمد الى وصفه بكل كيانه و قد كان وصفه يشمل بيئته اعتباراً من الارض و السماء و ما كان يراه فى الصحراء و حتى الحيوان و النبات و الجماد و ما كان يجده من مظاهر حياة البدو، و كل ذلك كان يبهر عين الشاعر. ان وصف المطر و الارض الخضراء و بزوغ الشمس و غروبها و النهار الملتهب و الليالى المظلمة يشكل الاساس لاشعار الاسود الوصفية.

لقد كان الشاعر يواجه الطبيعة دائماً فى كل لحظة من حياته و كانت الطبيعة الصحراوية التى كانت تتغير بسرعة و تتحول من لون لآخر تضخ فيه الفطنة و حضور الذهن و الاحساس اللطيف (الدبران، المقطوعة ٤، ص ٢٢-٢٣):

ذاك و مولى يمج الندى	قريانه اخضر مغلوب
قفرحمته الخيل حتى كان	زاهره اغشى بالزرنب
جاد السماء كان بقريانه	بالنجم و النثر و العقرب
كان اصوات عصافيره	اصوات راعى ثلة محصب
فرداً تغننى مكاكبه	تغنى الولدان و الملعب

ان هذه الاوصاف التى ذكرناها تتمتع بمظهر رائع بفضل تلك المعانى، و صور الخيال و التركيبات البديعة و الالفاظ الغريبة و الوحشية فى اشعار الاسود بن يعفر. كما يهتم الشاعر بقوالب و التراكيب اللفظية. فكل بيت يعكس لوحدة صورة او احساساً او فكرة. و من خلال انشاء الشعر يثبت الشاعر او يكرر التعبير الذى يترك تأثيراً اكبر فى ذهن السامع ليتجسد بالتالى فى صورة تراكيب عامة و اساليب ادبية

(الدبران، المقطوعة ٤٩، ص ٥٣-٥٤):

ترأت لنا بجيد آدم شادن و منسرح و حف اثيث المفارق

و تبسم عن غر الثنايا مفلج  
و ما روضة وسمية رجسية  
حمتها رماح الحرب حتى تهولت  
باحسن من سلمى غداة لقيتها  
كأن ثناياه اصطبحن مدامة  
كنور الاقاحى فى دماث الشقائق  
ولتها غيوث المدجنات البوراق  
بزاهر نور مثل وشى النمارق  
بمندفع الميثاء من روض مأذق  
من الخمر شنا فوقها ماء بارق

ان جميع هذه الامور و الظواهر المألوفة الاخرى التى تناولها الاسود بن يعفر بالوصف تشير الى احساس الشاعر و انطباعه عن العالم المحيط به وكان الطبيعة خلق جديد اضى على قلبه و روحه الفنون و الحيوية. و قد وظف الاسود فى جميع اشعاره مقدرته على التلوين و التصوير، انه يلون اللوحة الفنية للطبيعة بالوان مضيئة و يعتمد الى تزيين خطوطها البارزة و هو يلبس الطبيعة الصامته ثوباً من صفاء و نقاء للحياة البدوية ليخلق شعراً بديعاً و مثيراً للطرب. و فى الحقيقة فأن ذوق المتدفق و احساسه القوى و دقة ملاحظته كل ذلك جعل منه شاعراً قديراً فى فن الوصف.

و قد صور الاسود بمهارة فى قطعة اخرى مظاهر الطبيعة و خصوصاً الحيوانات الوحشية. و هو يتناول بالوصف مظاهر الطبيعة على اعالي التلال و الشعب او اخاديد الجبال مستلهماً منها و موظفاً نظرتة الثاقبة فى خلق الصور و الأخيلة (الديوان، المقطوعة ٦، ص ٢٢) :

و مرباً كالزج اشرفته  
تلفنى الريح على رأسه  
و الشمس قد كادت و لم تغرب  
كأننى صقر على مرقب

و يقول فى مقطوعة اخرى (الديوان، المقطوعة ٣٣، ص ٢٠-٢١) :

باتت عليه من الجوزاء اسمية  
ثم اتى دف ارطاة بحنينة  
منبوذة بمكان لاشعار به  
فاجابها و هو يخشى ان يلط به  
و قيل بالسبط العامى يمترس  
من الصريمة آواه لها الدلس  
و قد يصادف فى المجهولة للمس  
خوف على انفه و السمع محترس

حتى اذا ما انجلت ظلماء ليلته      عند الصباح و لم يستوعب الغلس  
و مار ينفض روقيه و متنته      كما تهزهز وقف العاجة السلس  
هاجت به فئة غضف مخرجة      مثل القداح على ارزاقها عبس  
و فاجأته سرايا لزعيم لها      يقدمن اشعث من ماريه طلس

ان وصف الاسود بن يعفر للطبيعة يدور احياناً حول الطبيعة و خصوصاً الحصان  
و الجمل اللذين احتلا في اشعاره مكانة خاصة. فالاسود يتجه عند الفجر الى اماكن  
الصيد و يقطع على سهوة حصانه الجموح الاماكن النائية و الموحشة بسرعة البرق.  
ففي يوم غائم اضفى فيه قصف الرعد و وميض البرق و الامطار المتدفقة الحيوية و  
النضارة و الجمال، نرى ان سحر لوحة الصيد يتضاعف. ان وصف مشاهد الصيف او  
وصف الحصان الجموح و الذى امتزج بمهارة فائقة بالفاظ راقية و اضفت نضارة  
المعاني عليه مظهراً خاصاً لا يخلو من الحياة و التحرك. و هذه الحياة تتجسد بشكل  
كامل عندما يعمد الشاعر الى ذكر دقائق المشاهد و كأن القارىء يتواجد في جميع  
ارجاء تلك التحركات و التحولات (الديوان، المقطوعة ١٣، ص ٣١):

بمشممر عند جهيز شده      قيد الاوابد و الرهان جواد  
يشوى لنا الوحد المدل بحضره      بشريج بين الشد و الايراد

في اشعار عديدة عمد الاسود الى وصف حصانه وجعله من خلال تشبيهات  
بديعة نظيراً للحيوانات المفترسة في الصحراء. ان تشبيه حصانه الخاص بالصيد  
بظبي ذى ساقين كانهما ساقا النعام، الطائر المعروف بعدوه السريع و قفزاته الشبيهة  
بقفزات الارنب (الديوان، المقطوعة ٧، ص ٢٣)؛ تذكر القارىء بتشبيهات امرىء القيس  
الساحرة:

لها وركا عنز و ساقا نعامه      و اسنان خنزير و مكشر ارنب  
و الاسود بن يعفر الذى ابدى مهارة في الاوصاف القصيرة و الغنية لمشاهد  
الوصف او وصف الحصان لا يغفل من اشادة بناقته النشيطة و القوية، الناقة التى

كانت افضل انيس ورفيق له في اسفاره و الخليل الذي كان يقطع معه تلك الصحارى

المحرقة (الديوان، المقطوعة ٣٣، ص ٣٩-٤٠)؛

وقد يقصر عنى السير آونة  
و جناء صرف ناباها اذا اعتمرت  
لأيا اذا مثل الحرباء منتصباً  
تلقى على الفرج و الحاذين ذا خصل  
كانه ناشط هاج الكلاب به  
من وحش خطمة فى عرنيه خنس...

وكما لاحظنا فإن الشاعر يرى فى جواده و ناقته خليلين ملازمين له ويشيد بهما  
باشعار محببة و يناديهما باسماء جميلة. و قد ذكر الاسود حالتها و حركاتها  
باوصاف فائقة الجمال مستعيناً فى ذلك بتشبيهات كثيرة و كأنه اراد ان يحمل قارئه  
ايضاً على ان يعجب به و يثنى عليه من خلال تقديم صور مثيرة للاعجاب.

### نتيجة:

نأمل ان يكون ما قدم فى هذه المقالة زاداً مريئاً لاذهان الباحثين. جدير ذكره ان  
من الواضح ان القيمة الادبية و التاريخية للآثار الجاهلية و التقدم الزمنى لها و الدور  
الاساسى للشعر فى فهم ادب العصور المتأخرة دفعنى الى ان اخصص دراستى  
المختصرة هذه للبحث فى آثار احد الشعراء الجاهليين و من البديهي ان القدامى و  
المعاصرين و المستشرقين قدموا حول شخصيات هذا العصر المشهورة دراسات  
واسعة، إلا أن الشخصيات العلمية و الادبية المغمورة فى العصر الجاهلى مازالت  
محاطة بهالة من الغموض و لم تحظ كما ينبغى باهتمام الباحثين و المحبين للأدب. و  
لذلك فان دراسة اشعار الاسود بن يعفر من شأنها ان تشق الطريق امام الباحثين فى  
الدراسات القادمة فضلا عن أنها تكشف النقاب عن صفحات مضيئة فى الادب  
الجاهلى و تصور قيمه الانسانية السامية و موارثه الادبية.

### المصادر و المراجع:

- ١- ابن سلام الجمحي، طبقات الشعراء، ليدن، مطبعة برييل، ١٩١٣ م؛ طبقات فحول الشعراء، تحقيق محمود محمد شاكر، القاهرة، مطبعة المدني، ١٩٧٤ م.
- ٢- ابن واصل الحموي، تجريد الاغانى، تحقيق طه حسين و ابراهيم الابيارى، القاهرة، مطبعة مصر، ١٩٥٧ م.
- ٣- الاسود بن يعفر، الديوان، تحقيق نوري حمودي القيسي، بغداد، وزارة الثقافة، ١٩٦٨ م.
- ٤- الاصفهاني، ابو الفرج، الاغانى، القاهرة، وزارة الثقافة.
- ٥- الاصمعي، عبدالملك، كتاب فحوالة الشعراء، تحقيق التوزي، بيروت، دارالكتاب الجديد، ١٩٨٠ م.
- ٦- البستاني، فؤاد افرام، دائرة المعارف، بيروت، دارالمعرفة، ١٩٨٠ م.
- ٧- البغدادي، عبدالقادر، خزانه الادب، تحقيق محمد هارون، القاهرة، مكتبة الخانجي، ١٩٥٦ م.
- ٨- الخطيب التبريزي، شرح اختيارات المفضل، تحقيق فخرالدين قباوه، بيروت، دارالكتب العلمي، ١٩٨٧ م.
- ٩- شرح القصائد العشر، تحقيق فخرالدين قباوه، بيروت، دارالآفاق الجديدة، ١٩٨٠ م.
- ١٠- سزگين، فؤاد، تاريخ التراث العربي، بيروت، مطبعة الآباء اليسوعيين، ١٩٢٦ م.
- ١١- الشيخو، لوئيس، شعراء النصرانية، بيروت، مطبعة الآباء اليسوعيين، ١٩٢٦ م.
- ١٢- فروخ، عمر، تاريخ الادب العربي، بيروت، دارا العلم للملايين، ١٩٨٤ م.
- ١٣- المفضل الضبي، مفضليات، تحقيق احمد محمد شاكر و عبدالسلام محمد هارون، مصر، دارالمعارف، ١٩٦٣ م.